الشَّرقُ والغربُ: حِوارٌ أم صِدامٌ

غازي بن محمد بن طلال الهاشمي(*)

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خاتَمِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ، أما بعدُ،

فسوفَ أقومُ بالحديثِ لمدَّةِ ما يَقرُبُ مِن خمسَ عَشرةَ دقيقةً حولَ تقييمِ حالةِ الحوارِ والتَّوتُّرِ بينَ الشَّرقِ والغربِ. لكنني اسمَحوا لي في البدايةِ أن أتقدَّمَ بخالصِ الشُّكرِ للأستاذِ «أندريا ريكاردي، والأب فيتوريو يناري» وجماعة «سانت إيجديو». كما أَوَدُّ أن أتقدَّمَ بجزيلِ الشُّكرِ لعمدةِ مدينةِ «فلورنسا» على كرمِ الضِّيافةِ وحُسنِ الاستقبالِ.

وأَوَدُّ أيضًا أن أُعبِّرَ عنِ امتناني بالشُّكرِ للإمامِ الأكبرِ أ.د/ أحمد الطيب شيخِ الأزهرِ الشَّريفِ، رئيس مجلس حكماء المسلمين الَّذي جَمَعَنا هنا. وكما تَعرِفونَ جميعًا فإنَّ شيخَ الأزهرِ هو أكبرُ وأعلى مرجعية في الإسلامِ السُّنِّيِّ. والمسلمون يشكِّلون ما يَقرُبُ مِن واحدٍ وخمسٍ مِن عَشَرةِ بليونِ مسلمٍ. وعظيمٌ جدًّا أن يَتبنَّى شيخُ الأزهرِ هذه الخُطوةَ. وأعتقدُ أنَّها سوفَ تكونُ نقطةَ تَحوُّلٍ في تاريخِ حِوارِ الأديانِ.

إنَّني آمُلُ مِن خلالِ هذا الاجتماعِ أن يَقِفَ شخصَينِ قويَّينِ وجهًا لوجهٍ، ولن تكونَ هناك حدودٌ فكريَّةٌ بينَ الشَّرقِ والغربِ. ولكي نَهدِمَ فكرةَ أنَّ هناك شرقًا وغربًا نقولُ:

- أ- جغرافيًّا: المسلمون والعالمُ الغربي ليسَ الشَّرقَ والغربَ؛ فإنَّ مدينةَ الدار البيضاء أبعدُ إلى ناحيةِ الغربِ من بريطانيا. وأستراليا ونيوزلندا أبعد إلى ناحيةِ الشَّرقِ مِن العالَمِ الإسلاميِّ. ولا يَنطبِقُ عليه هذا الأمرُ الجغرافيُّ على الشَّمالِ والجنوبِ.

- ب - أمَّا بالنِّسبةِ للشَّكلِ الدِّيمُوغرافيِّ: فإنَّ هذا أيضًا ليس صحيحًا؛ فَلَدينا ما يَقرُبُ مِن خمسين مليونَ مسيحيٍّ يعيشون في العالَمِ العربيِّ. والآنَ يعيشُ ما يَربو عن ٢٠ مليونَ مُسلمٍ في أوروبَّا.

- ج - ثقافيًّا: لَدينا الآنَ ثقافةٌ عالميَّةٌ. أتحدَّى أيَّ مسلمٍ يقولُ بأنَّه لا يُشاهِدُ التِّلفازَ الغربيَّ أو الأفلامَ الغربيَّةَ أو ثقافةَ البوب...إلخ.

- د - نحن جميعًا نتشاركُ في بيئةٍ واحدةٍ، ونتشاركُ في بيئةٍ طبيعيَّةٍ واحدةٍ؛ فالتَّلوُّثُ النَّاتجُ عن أمريكا يؤثِّرُ علينا في العالَمِ العربيِّ، وبالتَّالي على أوروبَّا، وشمالِ إفريقيا وهكذا.

ويرجعُ استخدامُ مصطلحِ الشَّرقِ والغربِ إلى أنَّه لا يريدُ أحدٌ منَّا التَّحدُّثَ بشأنِ صِدامِ الحضاراتِ، وبالتَّالي عندَما نقولُ مسلمين ومسيحيِّين؛ فهذا يُثيرُ فكرةَ الصِّدامِ، وبالتالي نقولُ الشَّرقَ والغربَ.

والآنَ، أعتقدُ شخصيًّا أنَّ هناك بعضَ اختلافاتٍ أكبرَ مِن الاختلافاتِ الدينيَّةِ، وربَّما يختلفُ معي بعضُ العلماءِ، أعتقدُ على سبيلِ المِثالِ أنَّها أكثرُ أهمِّيَّةً؛ حيثُ تَتعلَّقُ بكيفيَّةِ إدارةِ هذا العالَمِ كجسدٍ واحدٍ.

- هـ - الفقرُ المُدقِعُ والاستعبادُ: إذا كنتَ عبدًا، فأنت بذلك تُشبِهُ كثيرًا من الأشخاصِ في نفسِ الحالةِ، وبالتَّالي الأشياءُ الَّتي تُسيطِرُ على معنويَّاتِكَ أكثرُ أهمِّيَّةً مِن الأشياءِ الَّتي تُسيطِرُ على رُوحِكَ، هذه تُعتَبَرُ أنواعًا مِن الأرضيَّاتِ المُشتركةِ.

والآنَ سَأستَعرِضُ سريعًا الأسبابَ وراءَ الصِّراعِ بينَ الشَّرقِ والغربِ، وذلك مِن وجهةِ نظري المُتواضعةِ.

- أ - القُدسُ والقضيَّةُ الفِلَسطينيَّةُ: دائمًا ما يَتحدَّثُ المَلِكُ عبدُ اللهِ عن الصِّراعِ مع إسرائيلَ، ويُصرِّحُ بأنَّنا غيرُ مسؤولِينَ عن وجودِ داعش، وغيرُ مسؤولينَ عن الصِّراعِ في اليمنِ، وهذا صحيحٌ بالطَّبعِ، ولكن مِن منظورٍ إسلاميٍّ، تختلفُ قضيَّةُ فِلَسطينَ، وقضيَّةُ بيتِ المَقدِسِ على وجهِ الخصوصِ، عن غيرِها مِن الصِّراعاتِ الَّتي يَتعرَّضُ فيها المسلمونَ للاضطهادِ. يَتعرَّضُ المسلمون للاضطهادِ -وإن كانَ المسلمون يَضطَهِدونَ غيرَهم في الكثيرِ مِن الأماكنِ- في أماكنَ مِثلِ ميانمار وأفريقيا الوسطى، ولكن للقُدسِ وضعٌ مُختلِفٌ تمامًا بالنِّسبةِ لنا، وذلك لأنَّ شريعةَ الإسلامِ تَفرِضُ تكليفًا شرعيًّا على أيِّ مسلمٍ يُلزِمُهُ بالدِّفاعِ عنها، بينَما يَقَعُ التَّكليفُ بالدِّفاعِ عن غيرِها مِن البُلدانِ على أهلِها فقط.

وكانَ أوَّلِ ما نَزَلَ مِن القرآنِ لإباحةِ الجهادِ قولُهُ تَعالى: [أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله] [الحج: ٣٩، ٤٠].

هاتانِ الآيتانِ مِن سورةِ الحجِّ تُبيحانِ الجهادَ بأمورٍ ثلاثةٍ؛ وهي التَّعرُّضُ للظُّلمِ، والإخراجُ مِن الدِّيارِ، وتدميرُ الأماكنِ المقدَّسةِ.

والعلَّةُ الدَّافعةُ لخوضِ الجهادِ الدِّفاعيِّ وَفقًا للقرآنِ نَجِدُها حاضرةً في القدسِ على نحوٍ واضحٍ أكثرَ مِن غيرِها مِن البُلدانِ؛ وعليه؛ فإنَّ وقوعَ القدسِ تحتَ وَطأةِ الاحتلالِ يُمثِّلُ فاجعةً للمسلمين أكثرَ مِن أيِّ قضيَّةٍ أُخرى.

- ب - الاستياءُ مِن سياسةِ الغربِ الخارجيَّةِ: فهناك العديدُ مِن الحروبِ الَّتي خاضَتها الولاياتُ المتَّحِدةُ وأوروبَّا خلالَ الثَّلاثينَ أو الأربعينَ سنةً الماضيةِ، مِثلُ حربِ العراقِ وأفغانستانَ، وهو ما أثارَ غضبَ كلِّ المسلمين.

- ج - الإرهابُ: لأنَّه ممَّا يُثيرُ التَّساؤُلَ حولَ استياءِ الغربِ تِجاهَ المسلمين.

- د - التَطَرُّف: أَعني ذلك النَّوعَ مِن التَطَرُّف الَّذي يُعتقَدُ بأنَّه تفسيرٌ للدِّينِ، وهي الفئةُ الَّتي تَرى أنَّها تملكُ الحقيقةَ المُطلَقةَ، وأنَّ كلَّ التَّفسيراتِ الأُخرى غيرُ صحيحةٍ. وهذه أوَّلُ خُطوةٍ في طريقِ العُنفِ.

- هـ -النَّشاطُ التَّبشيريُّ: وهو دافعٌ كبيرٌ آخَرُ للتَّوتُّرِ، وقد استغرقَ الأمرُ ٧ سنواتٍ للاتِّفاقِ حولَ الفرقِ بينَ العملِ التَّبشيريِّ واعتناقِ الدِّينِ. وهذا سببٌ كبيرٌ وراءَ الصِّراعِ بينَ الأديانِ أَنفُسِها، وهو سببُ الصِّراعِ والتَّوتُّرِ بينَ السُّنَّةِ والشِّيعةِ في أفريقيا، مِثلُ ما في السُّودانِ ونَيجيريا. كما أنَّه سببٌ كبيرٌ للتَّوتُّرِ في بعضِ المناطقِ، مِثلُ المكسيك؛ حيثُ تحوَّلَ ربعُ السُّكَّانِ فيها مِن الكاثوليكيَّةِ إلى البروتستانتيَّةِ.

- و - فيما يَتعلَّقُ بالإرثِ الاستعماريِّ: نَرى جماعةَ داعش تَحتفِلُ بانتهاكِ اتِّفاقيَّةِ سايكس بيكو، وما زالَت هناك العديدُ مِن المناطقِ في الشَّرقِ الأوسطِ تُعاني مِن السِّياساتِ الاستعماريَّةِ السَّابقةِ، مِثلُ الأكرادِ الَّذين لا يَجِدُونَ مِنطقةً خاصَّةً بهم إلى الآنَ.

- ز - الموروثُ الثَّقافيُّ العالميُّ: وأَنصحُكُم بقراءةِ كتابٍ لعالَمٍ يهوديٍّ يُدعى «نورمان دانيل» بعنوانِ: Islam and the West: The Making of an Image أي: (الإسلامُ والغربُ تصنيع صورة)، حيثُ يُوضِّحُ الكتابُ كيفيَّةَ تأثيرِ الميراثِ الاستعماريِّ والجهادِ والحروبِ الصَّليبيَّةِ على كلِّ الموروثاتِ الثَّقافيَّةِ الشَّائعةِ.

- ح - التَّدخُّلُ السِّرِّيُّ مِن قِبَلِ وَكالاتِ الاستخباراتِ: وهذا يَتضمَّنُ عمليَّاتِ القتلِ والحَملاتِ الَّتي يَتِمُّ إطلاقُها مِن قِبَلِهِم.

- ط - التَّبايُنُ الاقتصاديُّ: الغربُ أكثرُ ثراءً مِن العالَمِ الإسلاميِّ بنسبةٍ قد تَصِلُ إلى عَشَرةِ أَضعافٍ.

- ي - اختلافُ النِّظامِ السِّياسيِّ بينَ الحكوماتِ: حيثُ يَقتنِعُ الغربُ بأنَّ أنظمةَ الحكوماتِ الَّتي لا تَتَّفِقُ معَ سياساتِهِ هي بحدِّ ذاتِها أنظمةٌ استبداديَّةٌ، ويُؤدِّي هذا إلى نوعٍ مِن الغطرسةِ السِّياسيَّةِ.

- ك - التَّحوُّلُ في القِيَمِ الأخلاقيَّةِ المنتشرةِ في الغربِ: والَّذي يُؤثِّرُ بدَورِهِ على القِيَمِ في الشَّرقِ، حيثُ قامَت أَيرلندا - الدَّولةُ الَّتي اتَّبَعَت نظامًا كاثوليكيًّا

صارمًا على مدى قرون طويلة - مُؤخَّرًا بالتَّصديقِ العامِّ على قانونِ زواجِ المِثليِّينَ. ويَبدو هذا غريبًا بدرجةٍ كبيرةٍ بالنِّسبةِ إلى المجتمعِ الإسلاميِّ، ولكن يُمكِنُ لهذا التَّحوُّلِ الأخلاقيِّ والثَّقافيِّ أن يُحدِثَ تَوتُّرًا وجدلًا شديدًا بسهولةٍ بالغةٍ.

- ل - داعش والإنترنت: وما هي جماعةُ داعش؟ في رأيي الشَّخصيِّ أنا على يقينٍ بأنَّ هذا التَّنظيمَ لن يَستمِرَّ على المَدى البعيدِ؛ فكلُّ عمليَّاتِ الاغتيالِ الَّتي قامَت بها الجماعةُ، وقطعِ الرُّءوسِ، والعديدِ مِن الجرائمِ الأُخرى الَّتي تمَّ نشرُها على شبكةِ الإنترنت قامَت بتكوينِ صورةٍ شنيعةٍ جدًّا عن هذه الجماعةِ، ولن تُمحى هذه الجرائمُ أو تَغيبَ عن ذاكرةِ كلِّ العالَمِ.

وإنَّني أعتقدُ أنَّ الإنترنت ووسائلَ التَّواصلِ الاجتماعيِّ بمثابةِ سلاحٍ ذي حدَّينِ؛ حيثُ يُمكِنُ مِن خلالِها إرساءُ التَّصالُحِ والسَّلامِ في الوقتِ الَّذي يُمكِنُ أن تُثيرَ فيه البغضاءَ والفتنةَ.

- م - ولا يَخفى عن ذهنِنا التَّغييراتُ البيئيَّةُ الَّتي تُمثِّلُ خطرًا يَحيقُ بالعالَمِ قاطبةً والإنسانيَّةِ جمعاءَ، وجميعُنا يَعلَمُ أنَّ التَّغيُّرَ البيئيَّ الَّذي أصابَ العالَمَ سيُؤثِّرُ علينا جميعًا، ولن تكونَ المرجعيَّةُ الدِّينيَّةُ مَرجِعًا لهذا التَّأثيرِ.

- ن - وأخيرًا: الحوار الثقافي والديني: الشَّيءُ الجديدُ الَّذي تَشارَكنا فيه - وكذلك بعضُ الرُّؤساءِ- ربَّما يكونُ حضورَ الأزهرِ وحضورَ مجلسِ الفاتيكان الثَّاني؛ ففي غضونِ العشرينَ أو الثَّلاثين عامًا الماضيةِ -بالتحديد منذُ أحداثِ ١١سبتمبر- كانَ هناك نوعٌ مِن الإقصاءِ لحوارِ الأديانِ، ولكن لسوءِ الحظِّ فإنَّ هناك قوَّةَ طردٍ مركزيٍّ مِن المتعصِّبين تُفرِّقُ ولا تُجمِّعُ. في الحقيقةِ إنَّه تَشخيصٌ مُتميِّزٌ لحالةِ حوارِ الأديانِ، حيثُ إنَّ الطَّاقةَ السَّلبيَّةَ النَّاتجةَ عن شبكاتِ الإنترنت أو الأشخاصِ المُناهِضين لحوارِ الأديانِ يَفُوقُ بكثيرٍ الطَّاقةَ المبذولةَ لصالحِ حوارِ الأديانِ.

الآنَ، فإنَّ آخِرَ بندٍ أَوَدُّ أن أَترُكَكم معَه هوَ اعتقادي أنَّه بالبحثِ في تاريخِ المناقشاتِ حولَ حوارِ الأديانِ أنَّه لا يُمكِنُ أن يَتِمَّ دونَ وجودِ مبادئَ فلسفيَّةٍ ورُوحيَّةٍ مُشترَكةٍ؛ فهناك مُحادَثةٌ وحيدةٌ قد آتَت ثمارَها، وأَعني بالمحادَثةِ المُثمرةِ تلك الَّتي تُعطي الفرصةَ للتَّعليمِ المُتبادَلِ، وليس فقط مُجرَّدَ محاولةٍ لإقناعِ الآخَرِ وفرضِ السَّيطرةِ عليه.

وأَمَلي هو أنَّ هذه الجهودَ تحتَ قيادةِ الإمامِ الأكبرِ بمُساعدةٍ مِن الأصدقاءِ في «سانت إيجديو» ستَكونُ محادثاتٍ ناجحةً.

واللَّه كريم، والسلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته.

* * *